واستغرب المنسق السؤال وتطلع إلى الثاني الذي بادر للرد بنعم.

فسأله فايز :

– وهل أنت نفسك الذي كتبت مقالة تحت عنوان (ذكرى) في صحيفة (ذكر اسمها كذلك) بتاريخ كذا؟ فأجاب الآخر :

– نعم.

وعندها توجه فايز بعينيه إلى العدسة التلفزيونية موجها حديثه للجمهور وقال:

– يبدو أيها السيدات والسادة اننا أمام محاور يذكرنا بقصة الدكتور جيكل والمستر هايد... وعلينا أن نحدد أيهما الصادق الدكتور جيكل أو المستر هايد.

ثم أخرج من حقيبته تلك المقالة وبدأ بقراءة مقتطفات منها تكذّب معظم ما ورد على لسانه أمام الشاهدين.

فما كان من المستر مورمون إلا أن حمل حقيبته وغادر الاستوديو... وكانت ضجة ما بعدها ضجة!

هذه نماذج من مقابلات فايز وهي أكثر من أن تعد أو تحصى. وقبل القفز عنها، أذكر واحدة ثالثة، حدثت في بيروت وفي الجامعة الاميركية بالذات. تلقيت الدعوة للاستماع إليه في محاضرة عن «الصهيونية» وكانت قاعة «الاسيمبلي هول» مكتظة بالجمهور. وتأخر فايز عن الحضور، وبدأ الهمس بأن الرجل مريض لا يستطيع مغادرة الفراش. ولاحظت الارتباك على الطلبة منظمي اللقاء، ثم فوجئنا بعدد منهم يحمل آلة للتسجيل يضعونها على المنبر.

ولم يقل عريف الاحتفال شيئاً، واكتفى بكبس الزر لنسمع صوت فايز يعتذر عن هذه الطريقة الغريبة للالتقاء بالجمهور بسبب المرض، ولعله كان القلب منذ تلك الأيام. وبدأ بالحديث، وشدت آلة التسجيل الآذان إليها، وكان الرجل بشخصه يقف وراء الميكروفون، يتدفق بطلاقة منتظمة ومنطق متسلسل باسلوب بليغ يصل القمة في بساطته ويسره.

وكان فايز صائغ من النوع المبادر باستمرار لفتح آفاق جديدة للنضال. وعندما انتمى لمنظمة التحرير الفلسطينية، كعضو في مجلسها الوطني، كان يُغني المجلس بمداخلاته وتحليلاته، كما أن له شرف تأسيس مركز الأبحاث في المنظمة، اثر تعيينه عضوا في لجنتها التنفيذية، وكان أول مدير لهذا المركز العلمي الثقافي الهام.

إن مثل هذه المبادرات والنشاطات، تبدو اليوم، في الثمانينات، وكأنها من بديهيات العمل الفلسطيني؛ غير أنها لم تكن على الاطلاق كذلك في أواخر الأربعينات والخمسينات حتى أواسط الستينات. في هذه الفترة من عمر المأساة، كان فايز وقلة من أمثاله وأبناء جيله، هم الذين تصدّوا للمأساة ورفضوا الانحناء لها. كانت صرخاته وأمثاله من النخبة الفلسطينية تشبه الصرخة في الواد سرعان ما تذهب أدراج الرياح. لم يكن أيامها ثمة وعي، لا فلسطيني ولا عربي ولا دولي، بقضية فلسطين وحقيقة العدو الصهيوني. ومن هنا فإن نضالات أبناء هذا الرعيل الذي ينتمي إليه الفقيد وهو من طلائعه تعتبر، في نظري،